لماذا جعلناه نطفة بدلا من خلقناه؟

د. محمد دودح
باحث علمي في هيئة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة

جوابا على السؤال: "ما الحكمة من قول الله تعالى (جعلناه نطفة) ولم يقل (خلقناه نطفة)؟"؛ يجب بيان أن الدلالة في القرآن لا تأتي شاردة؛ وإنما ضمن منظومة يتناول كل منها وجهًا يصدق سواه بلا تعارض رغم تباين المواضع وتطاول فترة التنزيل؛ شهادةً على وحدة المصدر بخلاف كل ما يُنسب للوحي سواه، ولذا الواجب النظر في كل مواضع المنظومة المتعلقة بالموضوع، مع التسليم أنه لا يعلم مُراد الله تعالى ويُحيط بالمدلولات والمقاصد على وجه اليقين أحد إلا الله تعالى ولا نملك سوى الاجتهاد.

وقد ظل السائد منذ عهد أرسطو في القرن الرابع ق.م أن الجنين يتكون من دم الحيض والمني منشط كالمنفحة في صناعة الجبن من اللبن، ومع اكتشاف الحيوان المنوي باستخدام مجهر بدائي في القرن السابع عشر حاروا فيه وظنوه حيوانًا دخيلاً فبقيت تسميته إلى اليوم بالحيوان بلا معرفة بدور الأبوين في تكوين الجنين، واعتقد آخرون أن بداخله إنسان فرسمه داليمباتيوس Dalempatius عام ١٦٩٩ وبداخله إنسان كامل بلا معرفة بأطوار التخليق، وفي القرآن منذ القرن السابع الميلادي أن جنين الإنسان يُخلق في أطوار؛ قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ نوح: ١٣و١٤، وأن الجنين يُخلق بمشاركة الذكر والأنثى؛ قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ الحجرات: ١٣، قال القرطبي: "بَيَّنَ الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى..، وقد ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده ويتربى في رحم الأم.. والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية؛ فإنها نص لا يحتمل التأويل".

ووفق علم الأجنة Embryology تتكون كل بويضات الأم وهي جنين، وبعد البلوغ يكتمل نضوجها فحسب وتخرج من المبيضين بالتناوب بويضة واحدة في منتصف كل دورة حيضية Menstrual cycle، ولذا تُعتبر البداية الفعلية للإنسان هي الحيوان المنوي Sperm عندما يُمنى ويُسابق ملايين من أقرانه (حوالي ٦٠ مليون في كل مللي لتر مكعب) بحركته الذاتية مخترقًا الحواجز ساعيًا نحو البويضة، وفي قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ القيامة: ٣٦و٣٧، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ النجم: ٤٥و٤٦؛ تصريح ببدء نشأة الجنين بمكون منوي واحد عند الإخصاب يماثل نطفة من ماء Drop-like؛ أي أشبه بقطرة تناثرت من يد مغتسل من بين ملايين القطرات، وتشبيه المني بالماء في كثرة المكونات رغم قلته في الحجم يؤيده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ المرسلات: ٢٠-٢٢، وبالفعل يتكون المني من ملايين المكونات ولا يقوم بالإخصاب سوى حيوان منوي واحد من بين نخبة محدودة نجحت في بلوغ قناة الرحم؛ ولذا يُعَدُّ التأكيد على أن الأصل نطفة واحدة تحديًا، ويصف التعبير في القرآن الكريم مكونات المني المماثلة في الكثرة لقطرات الماء باسم الفاعل (دافق) بدلاً من اسم المفعول؛ قبل أن يُعاين بالمجهر حركته الذاتية بشر، يقول العلي القدير: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ الطارق: 5و٦.

وإذا تأملت الحيوان المنوي أو البويضة تحت المجهر تجد مكونات داخلية تحتاج للصبغ لتيسير رؤيتها بهيئة فتائل تسمى بالأمشاج أو الصبغيات Chromosomes، وهي المسئولة عن تحديد الخصائص الوراثية للفرد وجنسه، وكل مشيج خليط من وحدات وراثية متباينة الوظائف تسمى جينات Genes، ويحتوي كل من الحيوان المنوي والبويضة على نصف عدد الأمشاج في أول خلية إنسانية؛ ولذا يسمى كل منهما خلية جرثومية gamete، وبالتلقيح تتكون أول خلية إنسانية باختلاط الأمشاج من الجنسين وتكامل عددها ليبلغ ٤٦ مشيجا؛ ولذا تسمى البويضة الملقحة Fertilized ovum باللاقحة Zygote، وهي لا تختلف عن نطفة من ماء في الشكل ولا تزيد عنها في الحجم، ولكنها مميزة بالأمشاج المختلطة من الجنسين، وهو صريح قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ الإنسان: ٢، فهي من حيث الشكل والحجم نطفة واحدة أما التركيب فخليط من أمشاج؛ متباينة في الوظائف وتمييز الطبائع مزيج من الجنسين، قال الشوكاني: "أمشاج صفة لنطفة وهي جمع مشج أو مشيج، وهي الأخلاط والمراد نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما"، وقال ابن القيم: "الجنين يُخلق من ماء الرجل وماء المرأة خلافا لمن يزعم.. أنه إنما يُخلق من ماء الرجل وحده"، وقال الرازي: "قال قوم: إن الله تعالى جعل

في النطفة أخلاطاً من الطبائع..، والتقدير: (من نطفة ذات أمشاج)"، وقال ابن كثير: "المشيج: الشيء الخَليط بعضه في بعض"، وتُقَدَّر الخصائص الوراثية ويتحدد جنس الجنين مباشرة عقب الإخصاب Fertilization بامتزاج الأمشاج من الجنسين؛ وهو صريح قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ. مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ. مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ عبس: ١٨-٢٠.

والمرحلة الأولى لتخلق الجنين تتم خارج التجويف الرحمي، وفي قوله تعالى :﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ الزمر: ٦؛ يعدل القرآن الكريم في مقام بيان تكون كل الأطوار إلى لفظ (البطون) بدلا من الأرحام فتدخل أول مرحلة ويصدق الوصف على بقية المراحل لأن التجويف الرحمي داخل البطون، وخلال أول مرحلة لا يزيد الجنين في الحجم عن نطفة، ورغم تكاثر الخلية الأولى وتكوين كتلة خلوية كروية تسمى التوتة Morula لتماثلها بالتوتة يظل الشكل كرويا مماثلا للبويضة المخصبة في هيئة النطفة، وتنتهي المرحلة الأولى بنهاية أول أسبوع بوقوع الغرس Implantation، وتكتمل المرحلة الثانية للحمل بنهاية الأسبوع الثامن بتكوين كل أوليات الأعضاء وتشكيل الهيكل واتضاح الشكل الإنساني، وتمتد المرحلة الثالثة حتى اكتمال الحمل بالوضع وتتسم بالنمو وتعديل الهيئة، ويوجز القرآن الكريم تلك المراحل الثلاث في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ الإنفطار: ٦-٨.

ويبين القرآن الكريم بالتفصيل تباين أطوار تشكل الجنين في تعبيرات وصفية دقيقة تتفق تماما مع الأطوار الفعلية للجنين، يقول العلي القدير: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون: ١٢-١٤، ويتحول الجنين منتقلا داخل القناة الرحمية نحو الرحم محافظا على تماثله بالنطفة، وفي قوله تعالى: (جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)؛ تعبير (القرار المكين) تعبير وصفي دقيق يعبر عن الرحم، وفي مقابل اختصاص لفظ (الخلق) في اللغة بمعنى الإنشاء يختص لفظ (الجعل) بمعنى التحويل والتصيير؛ ولذا هو الأنسب للتعبير عن انتقال الجنين المماثل للنطفة إلى الرحم، ولا يملك العقل والوجدان سوى التسليم بيقين بأن تلك الحقائق العلمية التي يقدمها القرآن بتلطف لا يلفت عن الغرض لا يمكن أن يكون مصدرها بشر قبل إدراكها مجهريا والتحقق منها في عصر الثورة العلمية خاصة في القرون الثلاثة الأخيرة.